١٧
لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة السادسة - العدد الثاني عشر
(صفر- رجب ١٤٤٧)

دور السيدة حُدَيث في حياة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه

الدكتورة ناهيد طيّبي

الملخص: يتناول هذا المقال دراسة الدور الهامّ والمحوري للسيدة «حُدَيث» (والدة الإمام الحسن العسكري عليه السلام) في حياة وحفظ الإمام المهدي (عجل الله فرجه). يسلط البحث الضوء على مراحل حياتها في بيت الإمام الهادي عليه السلام في المدينة وسامراء، ومعاناتها في ظل تضييق ومراقبة أجهزة الخلافة العباسية. كما يركز بشكل خاص على تدابيرها الحكيمة لحماية الإمام المهدي عجل الله فرجه قبل وبعد استشهاد الإمام العسكري عليه السلام؛ ومن أبرز أدوارها: السفر مع حفيدها لإبعاده عن خطر العباسيين، وإدارة الأزمة الخانقة التي عصفت بالمجتمع الشيعي بعد استشهاد الإمام عليه السلام، والمساهمة في خطة التمويه لحماية الإمام عليه السلام، ومواجهة ادعاءات جعفر الكذاب بشأن الميراث والإمامة. ويُبرز المقال كيف تولت هذه السيدة الجليلة مقام «الوصاية» للإمام العسكري عليه السلام، وإدارتها لشؤون الشيعة، وحفظها للأوقاف والأموال الشرعية بشجاعة وتدبير في واحدة من أحرج فترات التاريخ الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: السيدة حديث، الإمام المهدي عجل الله فرجه، الإمام الحسن العسكري عليه السلام، الخلافة العباسية، مدينة سامراء، الوصاية، حفظ الإمامة، جعفر الكذاب.

تمهيد

إن الأدوار الظاهرة والخفية للسيدة «حديث» جديرة بالبحث والدراسة في ثلاثة أبعاد. لقد عاشت إلى جانب ثلاثة معصومين عليهم السلام، وكان لها أمام كل واحد منهم أدوار خاصة، والتي من خلال دراستها يمكن إدراك عظمتها وجلالها.

في هذا القسم من المقال، وبالاستفادة من التقارير التاريخية المتعلقة بالإمام الهادي والإمام العسكري عليهما السلام، يُقدم موجز عن حياة السيدة حديث.

١. دور السيدة حديث في بيت الإمام الهادي عليه السلام

بالنظر إلى تاريخ حياة كبار رجال ساحة السياسة وطالبي الحق، ندرك أن الدور الخفيّ لأمهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم مؤثر ومهمّ للغاية. في مثل هذه العائلات، عادةً ما كانت النساء - اللواتي كنّ حافظات لأسرار أزواجهن ومرافقاتهم الدائمات - لسن أفراداً منفعلين وغير مبالين، وبما يتناسب مع قدراتهن وإمكانياتهن - مع حفظ الحدود - كنّ يحاربن العدو. من البديهي أنه في بيت الإمام الهادي عليه السلام، مع وجود الضغوط التي كانت تمارس من قِبل جهاز الخلافة، كانت النساء أيضاً تحت الضغط؛ ولكن سبق القول إنّه بالرغم من الاختناق السائد والجوّ غير المناسب وحضور كُتّاب التاريخ في جهاز الخلفاء العباسيين، لم تصلنا تفاصيل هذه الأحداث. في هذه الفترة، حتى حول الإمام المعصوم نفسه، لا تُرى أخبار ملفتة مقارنة بالأئمة السابقين عليهم السلام؛ ولكن ممّا هو موجود يمكن تقديم صورة عن وضع حياة الإمام عليه السلام وزوجته.

يشير المسعودي في الأخبار المتعلقة بالخليفة معتزّ إلى أنّ يحيى بن هرثمة يقول: بعثني المتوكل إلى المدينة لأحضر علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر إليه، حيث كان قد سمع عنه أشياء.... ففتّشت منزله ولم أجد فيه سوى القرآن والدعاء وأشياء أخرى مشابهة، وأخذته معي و... (مروج الذهب، ٨٤/٤).

وقد ذُكرت تقارير أخرى أيضاً في المصادر المعتبرة والأولية التي تحكي عن الجو غير المناسب في فترة الإمام الهادي عليه السلام.

من خلال وضع هذه التقارير جنباً إلى جنب، ندرك أنّ تفتيش المنزل هذا قد تمّ في المدينة وكذلك في سامراء؛ لأنه في التقرير الأول، جاء الحديث أنهم أخذوه ليلاً إلى المتوكل؛ في حين أنّ مركز خلافته كان بغداد، وبوسائل السفر في ذلك اليوم لم يكن بإمكانهم أخذ الإمام عليه السلام إلى المتوكل حتى الليل؛ إلا إذا قيل إنهم حرّكوه نحو مقرّ المتوكل، وفي التقرير الثاني وقوع هذه الحادثة في سامرّاء واضح تماماً.

إذا قبلنا بوجود تجسّس المنافقين ومعارضي الإمام عليه السلام في كلتا المدينتين، يتبيّن من هذه التقارير أنّ بيت الإمام الهادي عليه السلام كان تحت المراقبة الشديدة. خاصة أنه بناءً على التقرير الأول، فإن مجموعة من الأتراك - الذين لم يكونوا ملتزمين بأيّ من المبادئ الأخلاقية والروحية وحرمة أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله - دخلوا مع آخرين إلى بيت الإمام عليه السلام، وذلك ليلاً وعندما كان باب غرفة الإمام عليه السلام مغلقاً. من البديهي أنّ هذا التحرك قد تمّ بشكل هجومي وبالقوة والترهيب، وفي هذا البيت كانت توجد السيدة حُدَيث وطفلها الصغير وجوارٍ أخريات أيضاً، وبالتأكيد خُلقت لهن مشاكل كثيرة أيضاً، والتي لأسباب عديدة، منها ظلّ الحكومة على أصحاب الأقلام وكُتّاب التاريخ، أو التعصب الخاص تجاه أخبار النساء و... لم تصلنا تفاصيلها.

على أي حال، تحرك الإمام الهادي عليه السلام وعائلته برفقة يحيى بن هرثمة وعدد من جنود المتوكل نحو سامراء. وبحسب نقل اليعقوبي، عندما علم إسحاق بن إبراهيم الطاهري، حاكم بغداد، بدخول الإمام عليه السلام إلى «الياسرية» واستقبال الناس له، أمر بأن يُدخلوا الإمام عليه السلام ليلاً إلى بغداد، ولإهانة الإمام عليه السلام أنزلوهم أولاً في «خان الصعاليك» (نُزُل في الأحياء الفقيرة ببغداد)، ثم اشتروا داراً من دليل بن يعقوب النصراني وأسكنوا الإمام عليه السلام وعائلته فيها (تاريخ اليعقوبي، ج ٣ ص ٢٠٩).

ربما يمكن دراسة الحياة الاجتماعية لحديث في مرحلتين:

١-١ الحياة في المدينة

إن الأوضاع السياسية للمدينة في السنوات من ٢٢٩ إلى ٢٣٣ للهجرة، أي منذ دخول

السيدة حُدَيث إلى بيت الإمامة حتى وقت الخروج من المدينة، جديرة بالبحث والدراسة. على الرغم من أنّ مدتها كانت أقلّ من خمس سنوات وقصيرة؛ إلا أنّها تضمّنت أحداثاً كثيرة. في بداية هذه الفترة، كان أبوجعفر هارون الواثق يتولّى الخلافة، ولكنّه من جهة كان يحارب فساد أعراب بني سليم وغيرهم من البدو في أحياء المدينة، ومن جهة أخرى، بلغت الرشوة والفساد في تشكيلاته الإدارية ذروتها (تاريخ الطبري، ج ٩ ص ١٢٩-١٣١). النقطة المهمة الأخرى هي أنه - بناءً على نقل ابن كثير - كان قد تبنّى عقيدة المعتزلة في خلق القرآن، وكان يساعدهم، وكما فعل والده المعتصم كان يبالغ في فرض أفكاره الدينية على الناس. أثار هذا الأمر اعتراض عامة الناس المتدينين والفقهاء (السيرة النبويّة، ابن كثير، ج ١٠ ص ٣٠٩). من البديهي أنّه بالنظر إلى رؤية ابن كثير، فإن المقصود من «الناس المتدينين» في هذا التقرير هم الحشوية وأهل الحديث، وهو يختلف تماماً عن مصطلح المتديّن في عصرنا. على أيّ حال - بشهادة التاريخ - كان الإمام الهادي عليه السلام في خضم هذه الفتنة المعروفة بـ «المحنة» ملجأً وملاذاً وموضع سرّ الشيعة، وبكتابته رسالة حذّرهم من التورّط في النزاع، وبالطبع أعلن معارضته لهذه الحادثة (تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٢؛ التوحيد، ص ٢٢٤). كانت هذه الاعتراضات والصدامات مع خليفة لم يكن يحفظ الأصول العقائدية، وهذا ما كان يسبب الاستياء لأسرة الولاية والإمامة، وكان ردّ فعل هذه المواجهة هو تشديد الممارسات المناهضة للعلويين في جهاز الحكومة، ولذلك كانوا يضعون عائلة الإمام عليه السلام تحت ضغط أكبر من ذي قبل لقمع الاعتراضات و...

بعد هارون الواثق، وصل المتوكل إلى الخلافة، وهو الذي ظلم العلويين والأئمة أكثر من جميع الخلفاء. يذكر المسعودي حول تعامل المتوكّل مع الإمام الهادي عليه السلام، أنّه وشوا بأبي الحسن علي بن محمد [عليه السلام] يوماً عند المتوكّل، وقالوا إنّ في منزله أسلحة ورسائل من الشيعة. فأرسل المتوكّل جماعة من الأتراك وغيرهم، فهجموا ليلاً وبشكل مفاجئ على منزله، ووجدوه في غرفة مغلقة، وكان يرتدي قميصاً من الشَّعر، ولم يكن في الغرفة فراش سوى الحصى و... فأخذوه على تلك الحالة، وأخذوه ليلاً إلى المتوكّل (مروج الذهب، ج ٤ ص ٨٣-٨٥؛ بحار الأنوار، ج ٥٠ ص ٢١٤).

بناءً على التقارير، في زمن المتوكّل، أصبح الوضع الاقتصادي لعائلة الإمام الهادي عليه السلام والشيعة قاسياً ولا يُطاق، بحيث كانوا يعيشون في ضيق. يكتب أبو الفرج الأصفهاني أنّه في ذلك الوقت، لم يكن لدى النساء العلويات ملابس مناسبة، وعند إقامة الصلاة كنّ يضعن عباءة واحدة على رؤوسهن بالتناوب ويصلين (مقاتل الطالبيّين، ص ٣٩٦). كذلك في العديد من التقارير نرى علامات على تحقير وإهانة الإمام الهادي عليه السلام من قِبل المأمورين والمسؤولين الحكوميين. يكتب ابن طاووس أنّ المتوكل في حالات كثيرة كان يأخذ الإمام عليه السلام معه، ولتحقيره كان يطلب منه أن يمشي في ركابه، وكان هذا في حين أن الأشخاص العاديين كانوا يركبون الخيول (مهج الدعوات، ص ٢٦٥). في جميع الحالات، سواءً الهجوم على بيت الإمام عليه السلام، أو الخروج وأخذهم نحو سامراء التي كانت مدينة عسكرية صغيرة، وقصة التحقير وإنزال أهل البيت في خان الصعاليك و... كانت سيدة حُدَيث بجانب الإمام عليه السلام وترافقه، ورغم أنه لا يوجد تقرير مخصّص عنها، إلا أن مرافقة عائلة الإمام عليه السلام تُرى بشكل عامّ في الروايات والتقارير.

١-٢ الحياة في سامراء

بعد المتوكّل، وصل المنتصر إلى الخلافة، ولفترة من الزمن انخفضت الضغوط السياسية والنفسية على بيت الإمام الهادي عليه السلام؛ لأنّه في هذه الفترة كان الخليفة والمحيطون به يركّزون أكثر على المعارك الخارجية، وكذلك كانوا يحاربون الانتفاضات العديدة للشيعة وغيرهم.

كان الإمام الهادي عليه السلام وعائلته في سامراء تحت المراقبة الملحوظة وغير الملحوظة. قيل إن الإمام عليه السلام كان مضطراً للحضور في دار الخلافة كلّ يوم اثنين وخميس (الغيبة للطوسي، ص ١٢٩)، وهذا التحرّك لم يكن يتمّ إلّا من أجل مراقبة الإمام عليه السلام وعائلته، على الرّغم من أنّه كان يبدو في الظاهر عملاً محترماً. لم يكن الشيعة يستطيعون لقاء إمامهم بسهولة (الكافي، ج ١ ص ٥٠٩، الارشاد، ص ٣٨٧)، وكانوا يلتقون به كعابري سبيل أثناء مرور الإمام عليه السلام نحو دار الخلافة، أو كانوا يأخذون إجابات أسئلتهم بإشارة من الإمام العسكري عليه السلام (الكافي ج ١ ص ٥١٣، مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب، ج ٤ ص ٣٣-٣٤، اثبات الوصيّة، ص ٢٤٣).

رغم أنّ أصل تواجد الإمام الهادي عليه السلام وعائلته في سامراء يمكن اعتباره بمعنى السجن، ولكن في هذه المدة حدثت اعتقالات أيضاً من قبل الخلفاء؛ على سبيل المثال، وصلتنا تقارير عن سجن الإمام الهادي والعسكري عليهما السلام في زمن الخلفاء، المعتزّ والمهتدي والمعتمد. (كشف الغمّة، ج ٢ ص ٤١٦؛ الخرائج والجرائح، ج ١ ص ٤٥١).

ما يبدو مؤكّداً هو المشاكل والصعوبات التي لحقت بعائلة هذا الإمام العظيم عليه السلام. كانت سيدة حُدَيث، سواء في وقت اعتقال الإمام الهادي، أو عند سجن الإمام العسكري عليهما السلام، بصفتها زوجة وأمّاً، تتحمل الكثير من الآلام والمخاوف والصعوبات؛ وحتى لو لم يصلنا أيّ تقرير في المصادر المتاحة، فمِن خلال تصور شخصية الزوجة والأمّ يمكن إدراك عمق ألمها؛ فهي سيدة شهدت شهادة زوجها الشابّ، واحترقت أيضاً بمصيبة شهادة ابنها الشابّ، وكان لديها كذلك همّ الحفاظ على حياة الإمام الثاني عشر عجل الله فرجه.

٢. حفظ حياة إمام المهدي في عهد الإمام العسكري عليهما السلام

سبق القول إنه بناءً على الروايات والتقارير التاريخية، فإن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في عام ٢٥٩ للهجرة، سلّم ابنه الصغير، المهدي الموعود، الذي كان عمره آنذاك أقل من خمس سنوات، إلى والدته، وبعد تقديم معلومات عن أحداث عام ٢٦٠ للهجرة والأخبار الغيبية، بما في ذلك حول شهادته، أرسلها إلى مكة، لكي يُحفظ ابنه الذي يجب أن يرتدي خِلعة الإمامة بعده من شر الأعداء (كمال الدين، ص ٥٠٩). يكتب المسعودي بأن أوصى الإمام عليه السلام إليها وسلّمها الاسم الأعظم والسلاح ومواريثه. (إثبات الوصيّة، ص ٢٥٥). يبدو أنّ هذا التحرك كان قبل شهر ذي الحجة من عام ٢٥٩ للهجرة؛ لأنه تمّ التصريح بسفر الحجّ، ومع وجود وسائل السير والسفر في ذلك الزمان كان يجب أن يتمّ هذا السفر قبل بضعة أشهر من مناسك الحج. الضغوط السياسية والنفسية من جهاز الخلافة على عائلة الإمام عليه السلام ووجود جواسيس الخليفة، جعلت الأوضاع الداخلية لبيت الإمام عليه السلام محفوفة بالمخاطر جداً، وهذا التدبير اتُّخذ من أجل حفظ آخر كنز إلهي. يذكر المسعودي أنّ هذا السفر حدث في عام ٢٥٧ للهجرة (إثبات الوصيّة، ص ٢٥٥)، وفي هذه

الحالة تكون مدة السفر أكثر من عامين، وكان عمر الإمام عليه السلام وقت السفر ثلاث سنوات. يبدو أنّ قول المسعودي ضعيف؛ لأنه عندما يسلم الإمام العسكري عليه السلام ابنه للسيدة حُدَيث، يخبر عن موته في وقت قريب؛ في حين أنه من عام ٢٥٧ للهجرة حتى وقت وفاة الإمام عليه السلام توجد مسافة حوالي ثلاث سنوات. يذكر الشيخ الصدوق عودة السيدة حُدَيث من المدينة، حيث تعود إلى سامراء عند سماع خبر شهادة الإمام عليه السلام، وتحدث أحداث ونزاعات بينها وبين جعفر، والتي يتجاوز الشيخ عن نقلها (كمال الدين، ص ٤٧٤).

نظراً إلى أنّ السيدة حكيمة تقول في تقرير لها إنّها قبل أيام قليلة من شهادة الإمام العسكري عليه السلام التقت بالإمام المهدي عجل الله فرجه في بيت الإمام وسمعت منه كلاماً (الغيبة للطوسي، ص ٢٣٧-٢٣٨؛ المجدي في أنساب الطالبيّين للعلوي، ص ١٣٢)، والرواية محل البحث التي تنصّ على أنّ السيدة حُدَيث كانت في المدينة حين سمعت خبر شهادة الإمام عليه السلام وعادت مع الإمام المهدي عجل الله فرجه إلى سامراء، يجب إيجاد حلّ لهذه المشكلة. إذا كان السفر قد حدث، فمن المؤكّد أنّ السيدة حكيمة هي من أوائل الذين علموا بهذه القصة، وتقريرها عن رؤية الإمام العسكري عليه السلام - قبل بضعة أيام من الشهادة - لخواصّ ومحبّي الولاية الذين كانوا يعلمون بالتأكيد بسفر السيدة حديث، كان سيخدش مصداقيتها وصدقها (راجع: بصائر الدرجات للصفار، ص ٥٠٢). فاحتمال أن تكون الرواية المذكورة مختلقة هو أكبر من رواية سفر السيدة حديث أو وجودها في المدينة وقت شهادة الإمام العسكري عليه السلام.

الرواية المتعلقة بالأخبار الغيبية للإمام عليه السلام عن شهادته ووضع الشيعة بعده طُرحت معاً مع الروايات التي تذكر تسليم الإمام المهدي عجل الله فرجه للسيدة حديث من أجل سفر الحج، ويبدو أنه حدث تقطيع في الرواية، وما يشير الصفار إلى جزء منه يكمله شخص آخر يتناول بقيته؛ ولكن الرواية المتعلقة بسفر السيدة حديث مع الإمام المهدي عليه السلام إلى مكة ينقلها صفار القمي عن الحسن بن علي الزيتوني عن إبراهيم بن مهزيار، وبطريق آخر ينقلها صفار عن سهل بن هرمزان عن محمد بن أبي زعفران عن أم أبي محمد. هذه الرواية نُقلت عن طريق المسعودي عن الحميري عن الحسن بن علي

عن إبراهيم بن مهزيار عن محمد بن أبي زعفران عن أم أبي محمد أيضاً، ومضمونها هو أنّ الإمام العسكري عليه السلام يخبر والدته حديثاً عن شهادته.

مما حدث في سفر السيدة حديث وإمام المهدي عجل الله فرجه وعدة أشخاص أرسلهم الإمام العسكري عليه السلام لمرافقتهم ومساعدتهم، لا توجد تفاصيل كثيرة متاحة. بناءً على نقل الشيخ الصدوق، كانوا في المدينة عندما سمعوا خبر شهادة الإمام العسكري عليه السلام، ولأن السيدة حديث كانت على دراية مسبقة بالأوضاع الداخلية لبيت الإمام عليه السلام وحيل جعفر، وكان الاختناق والظلم السائد في جهاز الخلافة في سامراء معروفاً لها أيضاً، فقد أسرعت بالتوجه إلى سامراء.

استشهد الإمام العسكري عليه السلام في الثامن من ربيع الأول عام ٢٦٠ للهجرة، وفقاً للقول المشهور (الارشاد، ج ٢ ص ٣١٣؛ إثبات الوصيّة، ص ٢٥٦؛ دلائل الإمامة، ص ٢٥٦). ومما لا شكّ فيه أنه حتى ذلك الوقت كانت مناسك الحج قد انتهت، والسيدة حديث ذهبت إلى المدينة - لزيارة قبر رسول الله وقبور البقيع أو للقاء الأصدقاء أو للإقامة في تلك المدينة لفترة - حتى يكون الإمام المهدي عجل الله فرجه في مأمن من مؤامرات جواسيس جهاز الخلافة. بما أنه بعد شهادة الإمام العسكري عليه السلام في الثامن من ربيع الأول وقبل إقدام جعفر، وصلت تلك السيدة إلى سامراء، فيُحتمل أن يكون هذا السفر الزياري والسياسي - في حالٍ لم نقبل قول المسعودي واعتمدنا على رواية السيدة حديث نفسها - قد استغرق حوالي أربعة أشهر. بالطبع، بناءً على نفس الرواية يمكن استنتاج أنّ مجرى حركة حديث من المدينة كان بعد سماع خبر الشهادة.

٣. حفظ حياة الإمام المهدي بعد شهادة الإمام العسكري عليهما السلام

بعد شهادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أصبح حفظ حياة إمام المهدي عجل الله فرجه أكثر أهمية وحيوية؛ لأنه إمام الشيعة ويجب أن يبقى حياً، ودور السيدة حديث يصبح أبرز في هذا الوقت.

بعد شهادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أُصيب الشيعة الإمامية والناس بالحيرة

والمحنة. فمن جهة، ظهرت فرق مختلفة أثارت شكوكاً كلامية كثيرة في مجال الإمامة مما أدّى إلى شك وحيرة الناس؛ ومن جهة أخرى، كان جهاز الخلافة الذي علم من الروايات السابقة بوجود خليفة للإمام الحادي عشر، بصدد زيادة الضغط النفسي والسياسي على عائلة الإمام عليه السلام.

كانت الأوضاع مضطربة لدرجة أن المسعودي يشير بعد الإمام الحسن العسكري عليه السلام بانقسام الناس إلى عشرين طائفة، وكل طائفة كانت على اعتقاد ورأي. (مروج الذهب، ج ٤ ص ١٩٩). بالطبع كان الشيخ المفيد يعتقد أنّ الناس انقسموا إلى أربع عشرة فرقة، وكانت لديهم اختلافات مع بعضهم البعض (الفصول المختارة، ص ٣١٨ و ٣٢١ نقلاً عن النوبختي)؛ ويكتب أنه في الوقت الحاضر -الذي يقول فيه هذا الكلام - لم يبق من الفرق المذكورة سوى الإمامية الاثني عشرية.

بناءً على الروايات المتعارضة، قام أشخاص مختلفون بالصلاة على جثمان الإمام العسكري عليه السلام. وفقاً لبعض الروايات، أمر الحاكم العباسي ابن المتوكل، أبا عيسى، بقراءة الصلاة على جثمان الإمام عليه السلام (الإرشاد، ج ٢ ص ٣٢٤؛ الكافي ج ١ ص ٥٠٥)، ووفقاً لنقل آخر حضر جعفر الكذاب عند جثمان الإمام عليه السلام وكان مستعداً للصلاة، فخرج طفل صغير من بين الحشود وأزاحه، وصلى على جثمان والده (كمال الدين، ص ٤٧٥).

من الممكن أن تكون قد أُقيمت صلاتان على جثمان الإمام عليه السلام؛ إحداهما بين عائلة الإمام والتي ينطبق عليها قصة جعفر الكذاب وإمام المهدي عجل الله فرجه، والأخرى خارج العائلة وبناءً على المصالح السياسية أو العرف السياسي في ذلك الزمان حيث كان أشخاص من قِبل الخليفة يصلّون على الأشخاص البارزين في المجتمع، وبهذا الشكل لم تكن تحدث مشكلة في المسائل الحقوقية بعد الوفاة. النقطة المهمة في الرواية المذكورة هي حضور الإمام المهدي أثناء الصلاة على جثمان والده عليهما السلام. سبق القول إن الإمام العسكري عليه السلام سلّم ابنه لوالدته لتأخذه إلى مكة، وهم في المدينة - عند العودة من مكة - علموا بشهادة الإمام. هذه الروايات تتعارض مع بعضها البعض؛ لأنه إذا كان إمام المهدي عجل الله فرجه في المدينة وقت شهادة والده لم يكن بإمكانه الحضور

بشكل طبيعي وقت صلاة الميت، وقد قلنا سابقاً أيضاً إنّ روايات أخرى تشير إلى حضور الإمام عليه السلام عند والده في حالة الاحتضار. قد يُقال إنّ هذا الإمام عليه السلام كان يستطيع أيضاً مثل الإمام الجواد عليه السلام باستخدام الكرامة الخاصة بالمعصومين أو «طيّ الأرض» أن يعود إلى المدينة في وقت قصير ويصلي على الجثمان الطاهر لوالده.

على الرغم من أنّ مثل هذا الكلام ليس ببعيد وأنّ كرامات الأئمة قد أُثبتت؛ إلا أننا لنقل مثل هذا المطلب نحتاج إلى مستندات نقلية، والتي لم تُشاهد بشأن إمام المهدي عجل الله فرجه في مثل هذه المستندات بالشكل الذي توجد فيه بشأن الإمام الجواد عليه السلام.

على أي حال، بعد شهادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ازدادت الضغوط النفسية لجهاز الخلافة على عائلته، وكان دائماً هناك نساء قابلات وجواسيس من قبل الخليفة في بيت الإمام عليه السلام ليتّخذوا تدابير صارمة بمجرد سماع أيّ خبر عن طفل للإمام عليه السلام.

هنا ومن أجل التمويه وصرف أذهان مأموري الخليفة، جاءت قصة ادعاء إحدى جواري الإمام التي سُميت في الروايات «صقيل» بالحمل، ولفترة من الزمن انخفضت الضغوط المباشرة للدولة العباسية، وبالطبع وجود تيارات خارج هذا البيت كان له دور أيضاً في شغل تفكيرهم.

في هذه المرحلة التاريخية الحسّاسة، أي بعد شهادة الإمام العسكري عليه السلام، كان الجوّ السياسي والاجتماعي لمجتمع الشيعة وحتى الجوّ العائلي للإمام العسكري عليه السلام مضطرباً جداً؛ من جهة كانت روايات النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام حول الأئمة الاثني عشر ودور الإمام الثاني عشر للشيعة في المجتمع حاضرة في أذهان الناس، ومن جهة أخرى كان معظم الناس - باستثناء عدد قليل - لم يروا ابن الإمام، بل ولم يسمعوا عنه شيئاً. بشكل عامّ في هذه المرحلة عانت عدة مجموعات متضادة ومختلفة من أزمة:

- الشيعة الذين كانوا ينتظرون ولادة الإمام الثاني عشر عليه السلام وختم سلسلة الأوصياء - بالنظر إلى معلوماتهم السابقة.

- رجال جهاز الخلفاء العباسيين الذين كانوا قد سمعوا عن الإمام الثاني عشر للشيعة

منذ سنوات وكانوا يحاولون بخُططهم منع ولادته، ولهذا السبب كانوا يراقبون جواري وأهل بيت الإمام العسكري بشدة وكانوا يأخذون الإمام كلّ اثنين إلى دار الخلافة تحت المراقبة (فِرَق الشيعة للنوبختي، ص ١٠٥).

• الأشخاص الطامعون بالمنصب والانتهازيون مثل جعفر بن علي، شقيق الإمام العسكري عليه السلام، الذي كان يبحث عن فرصة ليدعي الإمامة من جهة ويستولي على ميراث شقيقه من جهة أخرى، ويحقق أحلامه ويوجه ضربة قاضية لعداوات شيعة الإمام الذين كانوا يعادونه منذ سنين بعيدة. تجدر الإشارة إلى أنّه كان قد التقى بالإمام المهدي عليه السلام مرتين، ولكنه كان ينكر مشاهداته أيضاً من أجل مطامعه.

في مثل هذا الجوّ، إجابة واحدة فقط على هذا السؤال: «هل كان للإمام ولد أم لا؟» كانت تستطيع تهدئة الأوضاع لصالح إحدى هذه المجموعات؛ ولكن عائلة الإمام من أجل الحفاظ على حياة ذلك الإمام عليه السلام كانت مأمورة بالسكوت والتقية.

والدة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، التي كانت في زمن الإمام أيضاً مرجعاً للشيعة في بعض الحالات - وكأنّ الإمام بهذه الإحالات كان بصدد خلق ثقافة وتقديم طريق لمرحلة ما بعد وفاته - كان لها دور مهمّ في أحداث ما بعد شهادة الإمام. كما قيل إنّها كانت في المدينة عند شهادة الإمام وبعد سماع خبر الشهادة أسرعت للوصول إلى سامراء لتمنع الفوضى والحيرة بين الشيعة. بناءً على بعض التقارير، أعلنت سيدة حُديث أنّ جارية من جواري الإمام تُدعى صقيل - والتي كانت أمّ إمام المهدي عليه السلام - حامل، وبناءً على تقارير أخرى، ادّعت صقيل نفسها الحمل. بالطبع هذان التقريران قابلان للجمع ومن الممكن أن تكون سيدة حديث هي من صمّمت أصل الخطّة ونفذتها صقيل. على أيّ حال كان هذا الادّعاء يمكن أن يتبعه تداعيات تمّ تبيينها في مجال آخر.

٤. حديث وميراث الإمام الحسن العسكري عليه السلام

بعد شهادة الإمام وقلق جهاز الخلافة من وجود طفل له، وبالتالي توقيف صقيل - الذي يوجد اختلاف حول مدته - حدث انقسام وخلاف شديد في بيت الإمام العسكري عليه السلام؛

فمن جهة كانت سيدة حديث والدة الإمام الحسن العسكري عليه السلام وحكيمة عمة الإمام - اللتان كانتا على علم بوجود إمام المهدي وإمامته - تسعيان للحصول على ميراث الإمام، ومن جهة أخرى كان جعفر الكذاب ووفقاً لبعض المصادر، الشقيقة الوحيدة للإمام العسكري التي ذُكر اسمها فاطمة ولقبها عُليّة أو دلالة، يطالبون بالميراث[1]. على أي حال وفقاً لبعض التقارير، بعد سبع سنوات، تمّ تقسيم ميراث الإمام بين جعفر ووالدة الإمام أو بينهما وبين شقيقة الإمام (فرق الشيعة للنوبختي، ص ١٠٥؛ المقالات و الفِرَق، ص ١٠٢؛ الفصل فى الملل و الأهواء و النِّحَل، لابن حزم، ج ٤ ص ١٥٨). يُذكر أنه في كتاب «تاريخ أهل البيت» ذُكر ثلاثة أبناء باسم الحسن ومحمد وجعفر للإمام الهادي عليه السلام ولا يُرى اسم بنت في نسله. (تاريخ أهل البيت عليهم السلام، ص ١١١).

النقطة المهمة هي أنّه في التقارير الموجودة لم يُذكر اسم صقيل التي كانت قد خرجت من التوقيف. بالطبع حول مدة توقيف صقيل توجد أقوال مختلفة؛ وبناءً على بعض النقولات فإنّها في ذلك الوقت لم تكن قد أُطلق سراحها بعد. يذكر أبو سهل النوبختي وابن حزم الظاهري أن مدة التوقيف كانت سنتين (التنبيه للنوبختي ص ٩٠؛ الفصل لابن حزم، ج ٤ ص ١٥٨)، ويذكر الشيخ الصدوق في رواية سنتين أو أكثر ويذكر أنّ مكان التوقيف كان بيت الخليفة أو تحت إشراف قاضي القضاة، ابن أبى الشوارب (كمال الدين، ص ٤٧٤). يذكر النجاشي في رجاله هذه المدة بأربع سنوات (رجال النجاشى، ص ٤٧٦)، وفي «دستور المنجمين» ذُكرت المدة أربع سنوات أيضاً، واعتبر الكاتب أن التوقيف كان تحت إشراف أحد العلويين (دستور المنجّمين، ص ٣٤٥)[2].

و وفقاً لتقرير النوبختي؛ لمّا توفّي الإمام العسكري عليه السلام، أجمع الشيعة وثقات الإمام على أنّ للإمام ولداً هو إمام الشيعة، وأمروا الناس بأن يسألوا عن اسمه؛ ولكن أن يكتموا هذا الأمر عن الأعداء، وقد بذل السلطان المعتمد على الله جهداً كبيراً في العثور على

١. راجع: مكتب در فرايند تكامل، ص ١١٠

٢. جدير بالذكر أنّ هذا الكتاب ليس موجود بأيدينا، و هذا الكلام نقلناه من مقال نقل من الكتاب (مجلة كلية الآداب لجامعة تبريز، عدد ١٨، ١٣٤٥ الشمسية، ص ٢١٧-٢٢٠). يبدو أنّ مصنّف كتاب دستور المنجّمين كان فى القرن الخامس.

الإمام عليه السلام، وكلّف أشخاصاً بمراقبة جواري الإمام ليتأكد من عدم حملهنّ (فرق الشيعة للنوبختي، ص ٩٢-٩٣).

٥. سيدة حديث ومقام الوصاية للإمام العسكري

رغم أنّ الأدوار السابقة كانت تحظى بأهمية خاصّة أيضاً؛ ولكن في هذه الحقبة من التاريخ حيث كانت حياة ومقام وأموال الإمام عليه السلام والشيعة تتعرض للنهب، وكان أعداء الإمام عليه السلام قد صمّموا على القضاء على أسرة الإمامة، فإنّ حضور السيدات حكيمة و حديث ونرجس سلام الله عليهنّ ونشاطاتهن لإحياء أمر الأئمة وإحقاق حق إمام زمانهنّ جدير ببالغ الثناء والتقدير. بما أنّ المباحث المتعلقة بالسيدة نرجس والسيدة حكيمة قد أُوردت في مجالات منفصلة، وفي هذا المقال التأكيد على دور السيدة حديث؛ لكنّنا مضطرّون للإشارة مرّة أخرى إلى أدوار هاتين السيدتين أيضا.

الشجاعة والاقتدار في قول الحق، رغم أنّ المجتمع ليس مستعداً لسماع غير ذلك، وإثبات وجود ابن للإمام الحسن العسكري عليه السلام والتوضيح للشيعة وغير الشيعة، واتخاذ سياسات خاصّة مثل ادّعاء حمل جارية الإمام من أجل الاستفادة من قوة مرور الزمن لحلّ المشاكل و... كانت من جملة خصائص الأنشطة النسائية لهؤلاء السيدات الثلاث. يمكن تلخيص مجموعة هذه الأنشطة في الموارد التالية:

- توعية المجتمع الحائر والمنفلت الذي فقد إمامه، ولأسباب تتعلق بالمصلحة ظلّوا غير مطّلعين على وجود الإمام التالي.
- إثبات مكانة الإمام المهدي بين الشيعة وأصحاب الإمام الحسن العسكري، سلام الله عليهما.
- مواجهة الشبهات الموجودة ومحاربة التقسيمات الفرقية الجديدة المعارضة للحق.
- جذب القوى الشيعية الملتزمة لإمام المهدي عليه السلام حتى لا تُسلم الأموال الشرعية لغير المعصوم.
- السعي للحفاظ على أموال الإمام ومقام الإمامة، حيث أنّهن بسبب وجود نظام

الهيمنة والظلم على رأس الخلافة لم ينجحن في حفظ الأموال؛ وأصبح جعفر الكذاب أيضاً أحد ورثة الإمام عليه السلام؛ ولكن مقام الإمامة - نظراً لكونه تعيينياً بفضل الله - لم يصل إلى يد جعفر الملوثة.

لقد طرح الشيخ الكليني في رواية أيضاً ادعاء السيدة حُديث حول وصية الإمام الحسن العسكري عليه السلام وإثبات هذا الادعاء عند القاضي «و ادعت امّه وصيته و ثبت ذلك عند القاضي»؛ وبناءً على إثبات هذا الادّعاء كان السلطان يبحث عن علاماتٍ لابن الإمام (الكافي ج ١ ص ٥٠٣؛ كمال الدين، ص ٤٣؛ الغيبة للطوسي، ص ٧٥ و ١٣٨). إذن فالمطلب الذي ينصّ على جعل السيدة حديث وصيةً هو مطلب صحيح، وقد بيّن الشيخ المفيد أيضاً هذا المطلب، وجاء باستدلال مناسب أيضاً لهذا الاختيار.

يُذكر أنّ وضع الشيعة كان لدرجة أنّ البعض كان يعتقد أنه بعد وفاة الإمام عليه السلام ستتولّى والدته السيدة حُديث الإمامة؛ لأنّ معظمهم لم يروا إمامهم، وحتى الأخبار والتقارير المتعلّقة بالولادة لم تصل إلّا إلى مسامع بعضهم. من جهة أخرى، كانت وجاهة ومقام ومكانة هذه السيدة قد أُثبتت عندهم (كمال الدين، ص ٥٠٦-٥٠٧؛ الهداية الكبرى، ص ٣٦٦)، وكانت وصايتها من الإمام العسكري عليه السلام مشهورة بين الناس. يكتب الشيخ المفيد:

الفصل العاشر من الفصول العشرة هو وصية الإمام الحسن المشهورة إلى والدته - المسماة بحديث والمُكناة بأم الحسن - في موقوفاته وصدقاته وإمضائها بناءً على شروطها، و لم يُذكر فيها ولداً موجوداً و لا منتظراً (الفصول العشرة فى الغيبة للشيخ المفيد، ص ٤٦).

وهو يطرح أسباباً مثل حفظ حياة إمام المهدي عليه السلام وتضليل وحرف أذهان الجواسيس وجهاز الخلافة و... في الإجابة على هذه الشبهة، وهو ما يخرج عن بحث هذا المقال.

تجدر الإشارة إلى أنه في «الإرشاد» للشيخ المفيد لم يُذكر أيّ حديث عن وصية الإمام الحسن العسكري عليه السلام ووصاية السيدة حُديث؛ ولكن ما كان مشهوراً في زمانه، أي في

أواخر القرن الرابع بين الناس، هو أنّ موقوفات وصدقات الشيعة في ذلك الزمان - بالنّظر إلى وجود وكلاء معتمدين للإمام - كانت تُعدّ من أهمّ قضايا العصر، خاصّة وأنّ صاحب هذه الأمور الأساسي كان يجب أن يكون غائباً عن أنظار الناس، وكان يجب اختيار شخص موثوق ومعتمد وفي نفس الوقت فعّال ومؤثّر ومقبول لدى عموم الشيعة لحماية هذه الأموال. النقطة المهمة والمُثيرة للاهتمام هي أنّ السيدة حكيمة العمة المحترمة والمعتمدة للإمام عليه السلام وللسيدة نرجس زوجته الكريمة كانتا حاضرتين أيضاً في ذلك الزمان؛ ولكن السيدة حُديث تُختار لتكون وصيّة الإمام عليه السلام. ربما يُطرح بحث طبقات الإرث هنا، والذي بالتأكيد يؤخذ بعين الاعتبار في قسم الأموال الخاصّة للإمام، ولكن في الموقوفات والصدقات يُطرح بحث آخر، ويمكن استخراج زوايا من شخصية هذه السيدة من إعطاء مقام الوصاية. بعبارة أخرى، بناءً على مباني الفقه الشيعي والسني، كانت والدة الإمام العسكري عليه السلام تُعتبر بشكل طبيعي من ورثة الإمام عليه السلام، وحتّى لو لم يكن اسمها في الوصية ولم يثبت أن للإمام عليه السلام ولداً، فإن السيدة حديث كانت ترث منه؛ ولكن القضية هي أنّه بالنظر إلى مجموع الروايات التي طُرح فيها جعل حديث وصية، والروايات التي تحيل فيها السيدة حكيمة الناس في شؤونهم الدينية إلى السيدة حديث بناءً عليها، يتبيّن أنّ مراد الإمام عليه السلام من وصاية والدته هو تسليم الأمور المتعلّقة بالشيعة وحفظ الموقوفات والأموال الشرعية إليها؛ وليس فقط تسليم الأموال الشخصية بعد شهادته. كان يجب على الإمام المهدي عليه السلام أن يتولّى هذه الأمور؛ ولكن بناءً على المصالح الإلهية غاب عن الأنظار، وكان الناس يتواصلون معه عن طريق السفراء الأربعة، وكان مرجع الشؤون المالية للشيعة أيضاً والدته؛ وذلك بسبب المكانة الخاصّة التي كانت تحظى بها في أسرة الولاية.

يطرح الشيخ المفيد سؤالاً بعنوان: «لماذا ذكر الإمام الحسن العسكري عليه السلام اسم والدته في وصيته؟ وهل كان هذا دليلاً على أنه لم يكن له ولد؟» ثمّ يجيب بأنّ وصية الإمام الحسن العسكري عليه السلام لوالدته كانت من أجل إخفاء ولادة ابنه عن الأعداء والحيلولة دون إراقة دمه، وإذا كان الإمام عليه السلام قد ذكر اسم ابنه في وصيته أو أوصى إليه شخصيّاً، فممّا لا شك فيه أنه سيكون نقضاً للغرض، ولن يتحقق المقصد الأعلى وهو حفظ

حياة الإمام المهدي عليه السلام. خاصّة وأنّه اضطرّ لإدراج أسماء حاشية الخليفة الخاصّين مثل مولى الواثق، ومولى محمد بن مأمون، وفتح بن عبد ربه كشهود في وصيته، حتى تكون هذه الوصية معتبرة من وجهة نظر الدولة العباسية، ولا تثير الحساسية تجاه الإمام المهدي عليه السلام (الفصول العشرة فى الغيبة، ص ٦٩).

توجد أقوال مختلفة حول تقسيم ميراث الإمام الحسن العسكري عليه السلام؛ الوجه المشترك للأقوال هو أنّ أموال الإمام صُودرت لمدة سبع سنوات. يعتقد ابن حزم أنّ هذا التوقيف كان بسبب حمل صقيل جارية الإمام، وهذا ما أدّى إلى نزاع جعفر شقيق الإمام مع جاريته. انحاز البعض لجعفر وانحاز البعض الآخر لتلك السيدة، وبعد انكشاف بطلان هذا الادعاء وصل ميراث الإمام عليه السلام إلى شقيقه جعفر (الفصل لابن حزم، ج ٤ ص ١٥٨).

بناءً على نقل الشيعة، بعد اكتشاف الخلاف في ادعاء الجارية، قُسم (الميراث) بين والدة وشقيق الإمام جعفر (الكافي، ج ١ ص ٥٠٣)؛ وفي نقل آخر شقيقة الإمام الشقيقة. والنزاع المذكور كان بين جعفر الكذاب والسيدة حديث والدة الإمام الحسن العسكري عليه السلام؛ وليس كما قال ابن حزم بين جعفر وصقيل.

من المحتمل أن يكون التعارض والاختلاف الموجود في النقولات بسبب المباني الفقهية الموجودة بين الشيعة والسنة؛ فبناءً على فقه أهل السنة إذا لم يكن للشخص ولد، فإن أمواله تؤول إلى أمّه وأبيه وأخيه وأخته[1]. وبناءً على فقه الشيعة، طالما أنّ الطبقة الأولى من الورثة موجودة، فلا تصل إلى الطبقة التالية، والأمّ والأب من الطبقات المتقدّمة ومع وجودهما لن يصل للأخ والأخت أي إرث[2]. الآن يجب أن نرى مع أيّ من المباني الفقهية تتوافق التقارير المعتبرة.

النقطة الأخرى هي أنّ عدم تدخّل صقيل أو نرجس في تقسيم الميراث، يدلّ على أنّ السيدة نرجس والإمام العسكري عليهما السلام لم يتزوّجا، وبسبب التقية أو أسباب أخرى كانت

١. راجع: المجموع للنووى، ج ١٦ ص ٩٠-٩١؛ مغنى المحتاج للشربينى، ج ٣ ص ١١ و ١٨؛ فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ج ١٢ ص ٢٤-٢٥

٢. الخلاف للطوسى، ج ٤ ص ٣٦، مسئلة ١٢٧

جارية الإمام، والجارية لا ترث. بالطبع إذا أنجبت الجارية ولداً، تُعتبر «أم ولد»، ومع ولادة الطفل تُعتق، وفي هذه الحالة ترث أيضاً؛ ولكن في القضية المذكورة كان الأساس هو إخفاء ولادة إمام المهدي عليه السلام، وادّعاء الميراث من قِبل والدته سيكون دليلاً على ولادة الإمام عليه السلام؛ لذلك بناءً على المصلحة لا يذكرون أيّ حديث عن الميراث للسيدة نرجس أو صقيل.

سبق القول إنّه في رواية نُقلت عن أحمد بن إبراهيم، جاء أنه يسأل السيدة حكيمة عمة الإمام عليه السلام: إلى من نلجأ بعد الإمام؟! وهي تقول: إلى الجدّة والدة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وعندما واجهت تعجب هذا الراوي الشيعي قالت: «إِنَّكُمْ قَوْمٌ أَصْحَابُ أَخبَارٍ؛ أَمَا رُويتُمْ أَنَّ التَّاسِعَ مِنْ وُلدِ الحُسَينِ بن عَلى، ويَقْسَمُ مِيرَانُهُ وَ هُوَ فِي الْحَيَاةِ؟» (كمال الدين، ص ٥٠٧؛ الغيبة للطوسي، ص ٢٣٠).

في مثل هذه الأوضاع الصعبة، حيث كان جهاز الخلافة الذين كانوا الأعداء الرئيسيين لأهل البيت يؤذون عائلة الإمام عليه السلام من جهة، ومن جهة أخرى في بيت الإمام كان شقيقه الذي كان عدوّاً حقوداً يسبب الإزعاج والأذى لعائلة الإمام، وكان اعتقال صقيل مقلقاً أيضاً، كان يجب على السيدة حديث أن تتحمل الكثير من الصعوبات والضغوط، وبحكمة وتدبير كانت تدير الأزمات الموجودة واحدة تلو الأخرى وتتجاوزها، وتبذل أقصى جهودها أيضاً لحفظ السر الإلهي؛ ولهذا السبب فإن أدوار السيدة حديث في حياة إمام المهدي عليه السلام بارزة جداً وجديرة بالتحليل والدراسة، رغم أنه لا توجد مواد تاريخية كثيرة في متناول اليد، ويجب من خلال تفكيك وتحليل الروايات، تصوير وإعادة بناء أحداث تلك الحقبة للوصول إلى كيفية هذه الأدوار.